- الغزو الثقافي: من الحقيقة إلى الواقع ونحو المواجهة
- دور الإعلام في الغزو الثقافي
- الجمال من رؤية إسلامية

الدكتور محمد شقير

الغزو الثقافي

المقدمة

الغزو الثقافي: هل هو جبهة لها واقعها وأطرافها، تضع العالم في معرض مخططات العدو وأهدافه، للنيل من ثقافته وسلوكه وهويته، وإبقاء سمة التخلف مستمرة في مجتمعاته أم أنها قضية مصطنعة، يطرحها من يبتغي تحقيق غايات سياسية واجتماعية، إذ لا مجال اليوم للإلتزام بمنظومة ثقافية وقيم خاصة بعد تواصل الثقافات وتفاعل أنماط السلوك والانفتاح الفكري؟

ما مدى حضور هذه الحقيقة – بعد غثبات واقعيتها وعالميتها – في وعينا؟

هذا، إذا افترضنا أننا لم نقع في شراك ثقافة التغريب الخفيّة – وهنا تكمن الخطورة في سلوكنا وتصرفاتنا أكثر من فكرنا وعقائدنا، حتى باتت بعض المظاهر صوراً مالوفة للحياة في المجتمعات الإسلامية في جميع بلاد المسلمين؟

ثقافة الآخر: كيف نتعاطى مع ثقافة الآخر؟

هل يصح أن نستهلك كل ضار ونافع، ونأخذ كل ما يُلقيه لنا هذا الغزو من تحديث وتجديد كالإنسان الفارغ، الخالي من أي ثوابت، الفاقد لكل خلفية؟ أم نتعلم من الآخرين محاسنهم، ونتلقى ثقافتهم تلفي الجسم السليم للعناصر الغريبة، فيمتص ما يستفيد منه ويذوِّب ما يكتسبه داخل إطاره ويدفع ما لا يراه مناسباً؟ أم نكتفي بما هو موجود لدينا من ثقافة؛ لتبرير الكسل عن الإنتاج الثقافي والتقوقع في دائرة العزلة؟

الأداة والمواجهة: هل استخدمت طلقة رصاص واحدة فيما آلت إليه البلاد الإسلامية من ضعف ثقافي وروحي، حتى غدت هذه الشعوب غريبة عن ذاتها منقطعة عن ماضيها التاريخي وعن مجدها العظيم؟

ما هي الوسائل والأدوات المستخدمة في هذه الحرب؟ كيف بإمكاننا تحدي كل هذه التقنيات ووسائل العرض المغرية بحيث نوجد بديلاً سليماً ويكون بمستوى العرض الهادف والمؤثر؟ ما هو السبيل للنهوض من جميع عثرات الشعوب الإسلامية والعودة إلى العزّة والهيبة، والتنعم بأرضية الأمن والرفاه؟ على من تقع مسؤولية هذه النهضة؟

لخطورة هذه الظاهرة وانعكاسها على المحيط الاجتماعي نطرح الموضوع ضمن المحاور التالي:

- معنى الغزو الثقافي وواقعه في العالم
- الغزو الثقافي والتبادل الثقافي
- الأدوات والوسائل

الغزة الثقافي: من الحقيقة إلى الواقع ونحو المواجهة

" الغزو الثقافي من الحقيقة إلى الواقع ونحو المواجهة" هو عنوان يحمل هموم المثقفين والعلماء ويعبَّر عنها، بل يحمل هموم الذين حملوا لواء المواجهة مع الغرب على كافة الصُعُد، وفي جميع المجالات.

بداية، لابأس أن نوضح ما هو المراد بالغزو الثقافي؛ حتى يكون واضحاً في هذا الإطار، نستطيع أن نعرّف الغزو الثقافي: أنه العمل الثقافي والفكري، من قبل بعض المنظومات الثقافية والفكرية المغايرة، من أجل مسخ هويتنا واستلابها؛ تمهيداً لإبدالها بالثقافة الغازية.

أمّا أهداف الغزو الثقافي، فهو ما يحتاج إلى بحث آخر، يفترق عن البحث في الإطار المفهومي. لكن السؤال الذي يُطرح هو:

هل هذا الغزو الثقافي أمر واقعي وحقيق، أم أنّه وهمٌ وخيالٌ غرقنا فيه؟!

نقول – بشيءٍ من البساطة – إنّ من يتابع ذلك الحوار، ما بين الغرب والشرق وما بني الإسلام وبقية الثقافات والتيارات الأخرى، خصوصاً التيار الغربي في كافة تشكيلاته وتجلياته الثقافية والسياسية والفكرية، يستطيع أن يتاكد من هذه الحقيقة، أنّ الغزو الثقافي هو أمر واقعي وحقيقي. وكثير من الشخصيات الغربية وعلماء الغرب يعبّرون عن هذا الأمر بشكل واضح وصريح، بما لا يُبقي

لدينا أي شكٍ، بأنّ هذا الأمر؛ هو أمر مدبّرٌ ومخططٌ له، ويستهدف عالمنا الإسلامي.

إنّ المؤسسات السياسية في الغرب كانت وما زالت – حتى الآن – تعبِّر عن هدفها، في إزالة جميع تلك المفردات الثقافية، التي يعتقد بها مجتمعنا الإسلامي، تلك المفردات التي ترى المؤسسات السياسية وغير السياسية أنّها تضرّ بالمصالح الغربية، وهذا ما نشهده، وما نسمعه بين حين وآخر؛ أنّهم يريدون تغيير هذا البرنامج التعلمي أو ذاك المنهج التربوي، وإزالة بعض الأمور الموجودة في هذه المادة أو تلك؛ لأنَّها تقوِّي مقولة "الإرهاب". وبتعبير أعمق وواقعي؛ لأنها تضرّ بالمصالح الغربية في مجتمعنا وعالمنا الإسلامي.

ومما ساعد على الغزو الثقافي، هو العولمة الثقافية، التي بتنا نشهدها منذ عقود من الزمن، إذ أنّ هذه العولمة – أي سقوط الجدران الثقافية – والتطور التقني، والعلمي، والتكنولوجي؛ كل ذلك ساعد كثيراً – من خلال تكنولوجيا المعلومات – على تحويل الكرة الأرضية إلى قرية ثقافية علمية صغيرة، فبالتالي أصبح من السهل على من يمتلك تلك التكنولوجيا، وذلك التطور العلمي ولاتقني، أن يوظف هذا التقدم في سبيل أهدافه التوسعية، على المستوى الثقافي والفكري.

أما بالنسبة للأدوات، نستطيع أن نقول:

أولاً: إنّ الإذاعات المسموعة تمثل إحدى تلك الأدوات، وهذا ما نشهده في بعض عملايت الاحتلال والغزو.

ثانياً: القنوات المتلفزة تُمثل أداة رئيسة.

ثالثاً: المطبوعات.

رابعاً: الإنترنت.

– إنَّ كل ما يرتبط بهذه الوسائل وغيرها، يمكن الاستفادة منه لممارسة الغزو الثقافي. وهناك أيضاً الوسائل التقليدية، التي كانت وما زالت تستخدم إلى الآن، تلك المدارس والمعاهد والمؤسسات، التي تزرعها الدول الاستعمارية في بلادنا، بعناوين شتى، وبواجهات مختلفة، والهدف منها: زرع أكثر من مفردة ثقافية، تعبِّر بمجملها وبكاملها عن مشروع غزو ثقافي توسعي لعالمنا الإسلامي.

كما نستطيع التحدث عن أمر آخر، وأن نربط ما بينه وما بين سيكولوجيا الغزو الثقافي (وهو يساعد كثيراً، ويمهد للغزو الثقافي، ويُوجد بيئة نفسية اجتماعية ملائمة لتقبّله) إنّ هناك عملاً إعلامياً تربوياً؛ من أجل زرع عقدة الضعف والتخلف لدى مجتمعاتنا الإسلامية. يريدون أن يُقنعوا هذه المجتمعات، بأنّها مجتمعات متخلفة وضعيفة، وغير قادرة على صنع التقدم والإبداع، بدون الاستعانة بالأجنبي والغربي. من خلال ذلك، يريدون أن يثبتوا لهذه المجتمعات تقدمهم وتفوقهم على الآخرين، على جميع المستويات: التقنية، والعلمية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، من خلال نزعة ما يدعونه بـــ "التفوق" الذي يمتلكونه. بالتالي علينا أن ننتبه إلى هذا الأمر، الذي يمكن أن يتسلل إلى مجتمعاتنا باكثر من طريقة، وبأكثر من أسلوب، ولو من خلال بعض السلع التجارية، التي تأتي إلى مجتمعاتنا بضجيج إعلامي؛ ليكتشف أفراد المجتمع أنّها تمتاز عن المصنوعات المحلية؛ لتترك على مدى الأيام أثراً مفاده:

إنّ ما يأتينا من الغرب – سواء على المستوى الصناعي أو التجاري أو كافة المستويات – هو أفضل مما ننتجه نحن. هذا ما يتسلل بشكل أو بآخر، حتى إلى المنتوج الثقافي والفكري لاحقاً؛ لأننا إذا وصلنا إلى ذاك المستوى الذي نعترف به بعجزنا وتخلفنا، وأننا قبلنا بنزعة "التفوق" لدى الآخر فهذا الأمر سوف يمتد؛ ليشمل حتى تلك القيم والمفاهيم الفكرية، التي نعتقد بها.

السؤال الأساسي هو: كيف نتعامل مع هذه الثقافة الوافدة، سواء وفدت هذه الثقافة إلينا أم نحن وفدنا غليها؟

ليس من الضروري عندما نتحدث عن ثقافة غازية، أن نتصور أنّ وجودنا البشري هو وجود جامد، وأن تلك الثقافة تستهدفنا، وهي القادمة إلينا. إذ إنّنا نجد أن الكثير من أبنائنا وشبابنا وعائلاتنا، قد ذهب إلى الغرب. فهذا السؤال، كما يُطرح ويُوجه بالنسبة إلينا، فإنّه يوجه ويطرح أيضاً بالنسبة إلى الجاليات الإسلامية التي استوطنت الغرب. وإن كان البعض يعترض على تعبير الجالة الإسلامية؛ ليقول إنّها أقليات إسلامية؛ لأنّها استوطنت الغرب، ولا تريد أن تهجر

ذلك الموطن الجديد؛ لذلك السؤال أيضاً مطروح بالنسبة إلى أولئك المسلمين، الموجودين في الغرب.

هناك جواب مقدم على هذا السؤال؛ ألا وهو:

علينا أن نميّز في تلك الثقافة الوافدة أو الغازية؛ بين ما ينسجم مع ثقافتنا ومع معاييرنا، فنأخذ به وما لا ينسجم مع ثقافتنا وهويتنا ومعاييرنا، فندعه جانباً. أعتقد أنّ هذه الإجابة هي على قدر كبير من الأهمية؛ لأن السؤال:

ما هي هذه الهوية التي يجب أن نمتلكها؟ ما هي المعايير التي يجب أن نحوزها؟ والتي على أساسها يجب أن نقيس، وأن نحاكم تلك المفردات الثقافية الوافدة إلينا؟

هذا سؤال أساسي، ومطروح، ويجب ان نبحثه بعمق. وأن نبحث عن الوجه الآخر الأعمق له؛ لأنَّ القضية لا ترتبط فقط بصناعة بعض المفاهيم الإسلامية، والمعايير الفضفاضة، بل إنّ الموضوع يرتبط بشكل أعمق ببناء روحية الإنسان وثقافته ومعنوياته وقيمه، أي ببناء هوية المجتمع الثقافية العلمية والروحية والفكرية، تلك الهوية القادرة من خلال حصانتها وممانعتها على مواجهة الثقافة الغازية، وإلاّ فإنّ تقديم هذه الإجابات بهذا المستوى من السطحية، لا أعتقد أنَّه سوف يخدم عملية الممانعة وفعل التحصين أمام الثقافة الغازية.

بالتالي أكرر هذا السؤال بطريقة مختلفة:

كيف نبني هويتنا الثقافية بحيث نحصّن تلك الهوية أمام الغزو الثقافي؟

عندما نقول: إننا مسلمون، هذا يعني: إنّنا نمتلك تلك الثقافة الإسلامية، تلك المرجعية المعرفية الإسلامية. هذه المرجعية إذا كانت قادرة على صنع هويتنا الثقافية المستقلة، التي لا تحتاج إلى أن تقتات على موائد الآخرين الثقافية، وإذا كنا نعتقد بقدرة هذه المرجعية الثقافية على هذا الفعل، عندئذ يجب أن نوجّه هذا السؤال لأنفسنا. فإننا نعتقد أن هذه المرجعية قادرة على مواكبة جميع تطورات الزمن، والإجابة على جميع المتغيرات الاجتماعية والثقافية والفكرية، وهذ القادرة على صنع حضارة الإنسان، مستقبله، وتحقيق الغايات الوجودية والكمالية، التي كانت مبرر وجود هذا الإنسان.

في هذا الإطار نقدم شاهداً وحيداً على هذا الأمر:

(ما من شيء إلا وفيه كتاب أو سنة)[1] هذا المضمون ورد عن الإمام المعصوم (عليه السلام) ...

فإذاً نحن نعتقد أنّ كل ما يمكن أن نواجهه في حياتنا على كافة الصعد وفي جميع الحالات، يوجد فيه كتاب أو سنة، ونستطيع أن نبني موقفاً أصيلاً منه، ذلك إذا استطعنا أن نبني تلك الثقافة الأصيلة، وأن نؤصَّل أنفسنا من خلالها، وأن نتأصّل بها. وبالتالي إذا كنا نعتقد بقدرة مرجعيتنا الثقافية ولافكرية على صنع هويتنا الثقافية، فإنّ هذا السؤال يعود بالنسبة إلينا:

- هل نعمل نحن بطريقة نحسِّن فيها أنفسنا، ونبني هويتنا الثقافية، من خلال تلك المرجعية الثقافية والفكرية والمعرفية؟
- هل استطعنا أن نعود إلى تلك المرجعية بطريقة، نستنفذُ فيها جميع تلك الإمكانيات والطاقات المودعة في قلب تلك المرجعية؟ تلك المرجعية هي – بحسب اعتقادنا وقناعتنا – مدرسة أهل البيت (عليهم السلام).

وليس الحديث هنا بطريقة شاعرية، أو بناءً على قناعة مذهبية ضيقة، وإنّما هذا الحديث مبني على عقيدة فكري، نرى أنها سبيل خلاصنا على كافة المستويات.

عندما يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): "**إني تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا**"[2]، إذاً "لن نضل" سواءً على المستوى الثقافي، أو الفكري، أو السياسي، أو الاجتماعي، حتى الاقتصادي أيضاً، لن نضل في أي مجال من تلك المجالات، طالما أنّنا تمسكنا بمدرسة أهل البيت (عليهم السلام).

فهل نعود إلى هذه المدرسة محاولين أن نكوّن من خلال منهجيتها إجابات أصيلة وسليمة ومنهجية على جميع كل تلك الأسئلة، وكل تلك الإشكاليات ، وكل تلك القضايا، التي يضج بها عالمنا المعاصر؟ّ!

---

(1)

(2)

إذا كنا نعتقد أننا نستمد الثقافة الأصيلة من مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) فهل نحاول أن نستفيد من جميع فصول تلك الثقافة؟! على المستوى الاجتماعي مثلاً، فعندما نتحدث على هذا المستوى، فهو حقل كبير قد ترامت أطرافه، وأهل البيت (عليهم السلام) قد تحدثوا في جميع مجالاته، وفي كل قضاياه. فهل نحاول نحن، من خلال عملية الاجتهاد الفكري والثقافي، أن نعود إلى تراث أهل البيت (عليهم السلام)، إلى رصيدهم التربوي، والروائي؛ من أجل بناء منهجية علمية، نجد فيها كل تلك الإجابات التي تلامس واقعنا المعاصر؟ّ!

إنّنا لن نصل إلى حصانة فكرية وممانعة ثقافية، إذا لم نعد – حقيقة – إلى مدرسة أهل البيت (عليهم السلام). بالتالي، الجواب على السؤال المرتبط بسبل مواجهة الغزو الثقافي؛ هو أن نبني هويتنا الثقافية الأصيلة. وبناء على هذه الهوية، إنّما يأتي من خلال أخذ معارفنا وتعاليمنا وأفكارنا، وجميع قضايانا، من خلال مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، وإن أمكن الاستعانة بشكل مباشر ببعض المفردات الثقافية، التي تتوجه مباشرة إلى قضية الغزو الثقافي؛ أي بإمكاننا تسييل بعض المفردات وتعويمها، وترشيدها، بهدف بناء جدار منيع، على المستوى التربوي، والثقافي، والاجتماعي، يحود دون تأثير تلك الهجمة الثقافية، على مجتمعنا وأبنائنا، وشبابنا، وفتياتنا.

وهذه المفردات هي:

أولاً: عندما نعتقد أنه "**ما من شيء إلا وفيه كتاب أو سنة**" هل نعود إلى المرجعيات الغربية، والثقافات الغيرية، من أجل أن نستفيد منها موقفاً لنا؟ أم أننا نعود إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام؟!

ثانياً: عندما نؤمن بقاعدة العزة **{ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين}**(3)؛ لأن عملية الغزو الثقافي ليست عملية معرفية فقط، إنما ترتبط أيضاً بالجانب المعنوي، والتربوي، والشعوري. عندما نعتقد أنّ العزة لنا كمؤمنين، هذه العزّة تتمثل وتتجلى على المستوى السياسي، وتتمثل أيضاً على المستوى الثقافي؛ لأننا سوف نعتقد أن العزة لثقافتنا. وإذا نظرنا بعين العزة إلى هويتنا الثقافية، عندها، هل يمكن

---

(3)

أن نقبل أي مفردة تأتينا من الشرق أو من الغرب؟ الجواب لا؛ لأننا ننظر بعين التعزز والعزة، إلى هذه الهوية الثقافية (أي هويتنا الإسلامية).

ثالثاً: عندما نؤمن بحرمة الركون إلى الظالمين: **{ولا تركنوا إلى الذين ظلموا}**[4].

ليس من الصحيح أننفهم هذهالآية في الإطار الثقافي؛ لأن الركون كما فسّره المفّسرون هو: الميل القليل، فعندما نُسرَّي دلالة هذه الآية إلى المجال الثقافي، سوف يحرم علينا أن نركن وأن نميل، ولو ميلاً خفيفاً، إلى أي مفردة ثقافية تأتينا من الغرب.

رابعاً: عندما نعتقد بعدم صحة التقليد الأعمى. ذلك التقليد الذي ذمّه القرآن الكريم، معنى ذلك أن كل ما نشهده وكل ما يأتينا، إذا تعاملنا معه على أساس هذا التقليد، فإنّ ذم القرآن الريم يشملنا، بالتالي، إنّ علينا أن نبني مجتمعنا بناءً تربوياً، يحذر من خلاله فعل التقليد الأعمى.

خامساً: وجوب الامتناع عن قراءة كتب الضلال ووجوب إتلافها. هذه المفردة الفهقية، يمكن أن تشكّل عاملاً إضافياً يغذي ويقوّي فعل الممانعة.

سادساً: ذم التشبه بالكفار. وهناك العديد من الروايات قد أكّدت على هذه المسألة، بالتالي فإنّ التشبّه بالكفار سواء على المستوى السياسي، أو على المستوى الدستوري، أو على المستوى الاجتماعي، أو الفردي، أو السلوكي، هو أمر مذموم، بل هو محرم أيضاً.

سابعاً: عدم موالاة ومودة الكافرين. بإمكاننا الاستفادة من هذه المفردة القرآنية والروائية أيضاً، في إيجاد ذلك الجدار الصلب في مجتمعاتنا، الذي يحول دوننجاح الغزو الثقافي. وكذلك حرمة التعرب بعد الهجرة، وما إلى هنالك من مفردات فقهية وثقافية ومفهومية، تُشكِّل – مُجتمعةً – منظومة ثقافية، نستطيع من خلالها أن نواجه بشكل مباشر عملية الغزو الثقافي.

إنّ هذه المواجهة تحتاج إلى فعل تأصيل؛ أي أن نؤصل أنفسنا، بأن نعود غلى مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) من أجل بناء هذه الهوية بشكلٍ منيع

---

(4)

وأصيل، فعندئذ نستطيع أن نفتح الباب على استقلالنا السياسي، والاقتصادي، وجميع المستويات؛ لأننا ننطلق من خلال هذه الهوية؛ لممارسة دورنا كأمة شاهدة في هذه البسيطة، وفي هذا العالم، وسوف ننتقل عندها من الدفاع الثقافي لمواجهة غزو يأتينا من هنا وغزو يأتينا من هناك، إلى عملية الدعوة إلى الله تعالى وتعاليم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، شرط أن نعود إلى هذه المدرسة، خصوصاً في رصيدها المعنوي والأخلاقي والقيم؛ لأننا لا يمكن أننقوم بدور الدعوة، إلاّ إذا استطعنا أن نتمثل أخلاق أهل البيت (عليهم السلام)، وقيمهم المعنوية والروحية. وفقنا الله وإياكم للسير على هداهم؛ ولنستمد من معينهم الذب خلقهم، ومعنوياتهم، ومفاهيمهم.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.